

الصاحب بن عباد

ورثة هذا اللسان العربى هم الآن أقلُّ خَلْفٍ شوقاً إلى نشر التاريخ المطوى لمن سلف من آبائهم ، وأبعدهم عن معاناة المشقة فى استقصاء أخبار من غير من علمائهم وأئمتهم وهداتهم ومن فتح ومن قاد ومن حكم ومن استوزر من أسلافهم ، فلذلك نكروا التاريخ العربى إذ لم يعرفوه ، وركت أساليهم إذ كان الأدب العربى على جانبى التاريخ العربى وفى طريقه ومن بين يديه ومن خلفه . ولا عجب فقد كانت البلاغة لعهدهم هى ميزان الرجال ، ومقياس العقل ، وقسطاس الحكمة . وما عق هذا الخلف أبوة من غير من أسلافه إلا لأسباب أخذت عليه طريقه ، ولو أن جلها ليس مما يبرر هذا العقوق أو يُعذر منه .

ولقد انتدب لمداواة هذا العقوق رجالٌ من الأدباء والشعراء فبدلوا ولم يضمنوا ، وأخرجوا فى رجال الأدب والتاريخ كتباً تعرف الناس بهم وبأدبهم وأخلاقهم وفضائلهم وما سؤغوا من الحكمة . وما رزقوا من الفضل . فمن ذلك ما كتب الأديب الجليل « خليل مردم بك » عن « الجاحظ » و« ابن المقفع » و« ابن العميد » و« الصاحب بن عباد » . والثلاثة الأولى من كتبه قد نشرت من أشهر وتداولها الناس . ونشر حديثاً كتابه عن « الصاحب بن عباد » فاستوفى ترجمته ما استطاع ، وجمع شتات ما وصل إلينا من أخباره ، ثم أبدى فى ذلك من صواب الرأى والدقة والتوثق قبل الحكم ما يشهد بأمانته وعدله . وفى الكتاب من رسائل « الصاحب » ومن شعره ما لم ينشر مستقلاً بعد .

وأسلوب كتابه هذا ، هو الأسلوب الجيد فى عرض التراجم التى يقصد من كتابتها تعريف الناشئين بمن مضى من أسلافهم ، حتى لا يقفوا منهم موقف الجهل إذا ما عرض ذكرهم فى حديث أو كتاب . على أنه لا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب هو أوسع ما يكتب عن الصاحب ، فإن أكثر ما كتب هو وما أُلّف ، أو ما كتب عنه أو قيل فيه ، قد استبد به الضياع . ولا يبعد أن يطلعنا القدر يوماً

ما على أثر من آثار الصحاح أو آثار من عرض لذكره والكلام عنه يبدل الحكم عليه أو ينقص منه أو يزيد فيه .

وأهم أبواب كتاب « الصحاح بن عباد » هو القول في « أسلوبه وخصائصه » من ص ١٢٩ - ١٥٧ قد وفق المؤلف في الكلام عن الأسلوب ولم يستوف خصائص الأسلوب حقها حتى تستطيع بعد أن تقرأه أن تعرف ما يميز أسلوب « الصحاح » من أسلوب أستاذه « ابن العميد » على أن للمؤلف عذراً بيئياً في هذا فإن آثار « الصحاح » و « ابن العميد » قد ضاعت ولم يبق إلا أقلها مما لا يعين على التحديد والحصص والإبانة عن مواضع التمييز . والكلام على خصائص أساليب الكتاب من أمثال الصحاح وابن العميد هو أهم ما يكتب عنهم وأجداه على العربية وطلابها إلا أنه فيما نرى أشقها وأبعدها مطلباً ، ولن يوفق إليه إلا من استكمل العُدَّة وتهيأ له الطبع الرقيق والبصر النافذ وواتته الأسباب بظهور جزء من الكتب الضائعة والمغمورة وأعانه العلم المستفيض بأخبار الكتاب وأخبار عصورهم ومن سبقهم ممن أخذوا عنه أو نهلوا منه .

وأما بعد ، فإن كتاب خليل مردم بك عن الصحاح هو من أحسن ما يعرف الناس بلسان من الألسنة البليغة ووزير من الوزراء النابهين في القرن الرابع للهجرة .